التعبير القرآني وأثره في إبراز المعاني

سهيل يوسف حجام *

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث التعبير القرآني وخصائصه البلاغية بوصفه أحد أبرز مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، بما يتسم به من دقة اختيار الألفاظ، وروعة النظم، وإحكام التراكيب، وعمق الدلالات. ويهدف البحث إلى التعريف بمفهوم التعبير القرآني، والكشف عن أبرز خصائصه وأساليبه البلاغية، وبيان أثرها في بناء المعنى وإبراز المقاصد القرآنية. ويعتمد البحث على دراسة نماذج مختارة من آيات القرآن الكريم وتحليلها للكشف عن جماليات التعبير فيها، ولا سيما ما يتصل بالتقديم والتأخير والإيجاز ودقة اختيار اللفظ ومناسبته للسياق. وتبيّن الدراسة أن هذه الظواهر ليست مجرد مظاهر جمالية أو محسنات بيانية، وإنما تؤدي وظائف دلالية دقيقة، وتكشف عن تلاحم فريد بين اللفظ والمعنى. ويخلص البحث إلى أن التعبير القرآني يتميز بنظام بياني محكم تتكامل فيه العناصر اللغوية والبلاغية لأداء المعنى في أدق صوره وأبلغها، بما يؤكد تفرد البيان القرآني وإعجازه.

الكلمات المفتاحية: التعبير القرآني، مناسبة الالفاظ، التقديم والتأخير، الإيجاز،أمثال القرآن، الاعجاز.

* الباحث في الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة كشمير سرينغر - الهند.

مقدمة

إنَّ طريقة التعبير الصادرة عن المتكلِّم الحكيم تدلُّ على قصدية واضحة في إيصال المعنى المراد؛ إذ إن اختيار الألفاظ والأساليب لا يكون أمرًا عفويًّا, وإنما يقوم على الدقة ومراعاة ملاءمة اللفظ للمعنى والسياق. والقرآن الكريم, إذ يخاطب البشر بلسان عربي مبين, قد جاء بأسلوب بياني فريد يجري على سنن العربية وطرائقها في التعبير, ولكنه يسمو في نظمه وبلاغته ودقة دلالاته إلى مرتبة الإعجاز, وهو ما يُعَدُّ من أبرز وجوه إعجازه البياني.

وقد دفع هذا التفرد البياني علماء المسلمين منذ العصور الأولى إلى العناية بدراسة القرآن الكريم وتأمل أساليبه وتحليل طرائق التعبير فيه, فوقفوا على ما يزخر به من دقة في اختيار الألفاظ, وإحكام في بناء التراكيب, وروعة في تصوير المعاني وأدائها. وقد تناول القرآن الكريم مختلف الموضوعات والمقاصد بأسلوب بليغ متفرد, يعجز البشر عن الإتيان بمثله مهما بلغت منزلتهم في الفصاحة والبيان.

ومن هنا نشأت العناية ببلاغة القرآن الكريم, وتوالت الدراسات التي سعت إلى الكشف عن أسرار نظمه وخصائص تعبيره ووجوه إعجازه, وبيان الصلة الوثيقة بين اختيار اللفظ وبناء التركيب والسياق من جهة, والدلالة المرادة من جهة أخرى. وفي هذا الإطار يأتي هذا البحث للإسهام في دراسة التعبير القرآني, من خلال الوقوف على مفهومه وبعض خصائصه وأساليبه, وتحليل نماذج مختارة تكشف عن دقته وثرائه الدلالي وجماله البياني.

ولعل هذا ما جعل الله تعالى يتحدى العرب بالقرآن الكريم، مع أنهم كانوا أهل الفصاحة والبلاغة، وقد عُرفوا بإبداعهم في نظم الشعر وكتابة المعلقات التي ما تزال محلَّ اهتمام الباحثين في اللغة العربية. ومع ذلك تحدّاهم الله تعالى أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال سبحانه:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

ثم خفّف التحدي فدعاهم إلى الإتيان بعشر سورٍ مثله، فقال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: ١٣).

ثم تحدّاهم بسورةٍ واحدة، فقال سبحانه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (يونس: ٣٨).

بل تحدّاهم أخيرًا أن يأتوا بحديثٍ يشبهه، فقال تعالى:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤).

ولذلك تصدّى العلماء عبر العصور لدراسة النص القرآني دراسة تحليلية وبلاغية، وصنّفوا في ذلك مؤلفات كثيرة تناولت وجوه إعجازه وأسرار بلاغته، وما اشتمل عليه من بيان وكناية ومجاز وسائر الفنون البلاغية. ولا تزال هذه الموضوعات

مجالًا رحبًا للبحث والدراسة لدى المهتمين بعلوم القرآن الكريم؛ لما يتميز به هذا الكتاب العظيم من علوّ الشأن, وجمال الأسلوب, وقوة التعبير, وبلاغة البيان.

وقد جاءت ألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته في غاية الدقة والبلاغة, مؤديةً المعاني المقصودة على نحو يتلاءم مع السياق والمقام. ويتجلى ذلك في جميع ما حكاه القرآن الكريم, سواء أكان الكلام صادرًا عن الله تعالى مباشرة, أم ورد حكايةً لأقوال الأنبياء وغيرهم من البشر, أم جاء على ألسنة الحيوانات, أم متعلقًا بالجمادات. ففي كل ذلك نجد دقةً بالغة في اختيار الألفاظ والتراكيب, تكشف عن المعاني المرادة وتؤديها أتمَّ أداء.

التعبير القرآني لغة واصطلاحا:

لغة التعبير: من الثلاثي (ع بَ ر), وهو أصل صحيح واحد يدل على النفوذ والمضي في الشيء[١] . وأصل العبر تجاوز من حال إلى حال كما فال الأصفهاني: "تجاوزٌ من حال إلى حال, فأمّا العُبُورُ فيختصّ بتجاوز الماء, إمّا بسباحة, أو في سفينة, أو على بعير, أو قنطرة, ومنه: عَبَرَ النّهرَ: لجانبه حيث يَعْبُرُ إليه أو منه" [٢]

ومن الباب: عبر الرؤيا يعبرها عَبرا وعبارة, ويعبِّرها تعبيرا, إذا فسّرها فلفظة التعبير اختصت بالرؤيا[٣].

١. ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركه مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية، (١٣٨٩ ـ ١٣٩٢ هـ) ج٤،ص٢٠٨
٢. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ص٥٤٣
٣. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ، ج٤،ص٥٢٩

وهو العابر من ظاهرها إلى باطنها, ومثال ذلك قوله تعالى: (إن كنتم للرؤيا تعبرون). وبهذا يتضح لنا ان لفظ التعبير لغة من عبر, عبرَ عن الشيء أي أفصح عنه وبيَّنه وأوضحه بالكلام

التعبير اصطلاحا: هو إظهار الشيء والافصاح عنه بعبارة تبرز الأفكار والمشاعر, أي إظهار المعنى الكامن في النفس أو العقل بواسطة الألفاظ, والعبارات بطريقة, واضحة, ومفهومة.

أما لفظ القرآني لغة: فهو منسوب إلى القرآن الكريم, وهو مأخوذ من كلمة القرآن, والقرآن في اللغة مشتقّ من الفعل قرأ, بمعنى الجمع والضمّ والقراءة, أي من مادة قرأ, ومنه قرأت الشيء, فهو قرآن: أي جمعته, وضممت بعضه إلى بعض, فمعناه: الجمع والضم, ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة جنيناً, أي لم تضم رحمها على ولد, قال أبو عبيدة -رحمه الله-: "وإنما سمي قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها"[٤], وعليه فإن التعبير القرآني لغةً يُقصد به, ترتيب الكلام والألفاظ, وجمعها.

أما القرآن في الاصطلاح فقد عرّفه العلماء بتعريفاتٍ متعددة, من أشهرها أنه: كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام, المتعبَّد بتلاوته, المنقول إلينا بالتواتر, المكتوب في المصاحف, المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

٤. الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، صحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، عطار، أحمد عبد الغفور، دار العلم للماليين بيروت، ط ٤، ١٩٨٧م، ج١،ص٦٥

وعلى هذا الأساس يمكن تعريف التعبير القرآني في الاصطلاح بأنه: الأسلوب الخاص الذي جاء به القرآن الكريم في اختيار الألفاظ وتركيب العبارات, لبيان المعاني بأبلغ صورةٍ وأدقِّ دلالة, بحيث تتحقق فيه أعلى درجات البيان والفصاحة والإعجاز. كما قال فاضل صالح السامرائي: بأنه اختيار دقيق للألفاظ وتنسيق محكم للعبارات, يضع كل كلمة وحرف في موضعه لتحقيق المعنى بأتمّ صورة, مما يجعله خطابًا لا يُضاهى في البلاغة البشرية. هذا الدقّة تتجاوز الفصاحة العربية التقليدية, إذ يُظْهِرْ كل عنصر دلالة مقصودة تُبرز الجمال والعمق

التعبير القرآني وأثره في إبراز المعاني

يُعَدُّ التعبير القرآني من أرقى صور البيان في اللغة العربية؛ إذ يتجلّى فيه إعجاز القرآن الكريم من خلال دقة اختيار الألفاظ, وتناسق التراكيب, وروعة الأسلوب, بما يؤدي المعنى في أبلغ صورة وأدقها. فكل لفظة في القرآن الكريم جاءت في موضعها المناسب وفق نظام بياني محكم, الأمر الذي يكسب المعاني مزيدًا من الوضوح وقوة التأثير في نفوس المتلقين.

ويتجلى أثر التعبير القرآني في إبراز المعاني من خلال جوانب متعددة, من أبرزها: دقة اختيار الألفاظ الملائمة للمعاني المقصودة, والتقديم والتأخير بما يحققه من أغراض بلاغية كالعناية والاهتمام والتخصيص, والذكر والحذف وما يؤديانه من دلالات يقتضيها السياق, فضلًا عن تنوع الأساليب بين الخبر والإنشاء بما يتلاءم مع المقام. كما يتميز التعبير القرآني بالإيجاز البليغ الذي يؤدي معاني واسعة بألفاظ قليلة, وبالتصوير البياني الذي يجسّد المعاني ويقرّبها إلى الأذهان في صور مؤثرة.

ومن هنا تبرز أهمية دراسة التعبير القرآني في الكشف عن أسرار البيان في القرآن الكريم، وبيان أثر أساليبه في توضيح المعاني وإبراز المقاصد. ويسعى هذا البحث إلى الوقوف على بعض خصائص التعبير القرآني من خلال نماذج مختارة من الآيات الكريمة، للكشف عن جمال هذا التعبير ودقة بنائه وثراء دلالاته.

١). النوع الأول: اختيار الالفاظ المناسبة

ظهر أثر التعبير القرآني في إبراز المعاني بدقة وعمق في قوله تعالى :﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]؛ إذ جاء التعبير بأسلوب القصر بواسطة «إنما»، ليدل على اختصاص الإطعام بهذه الغاية، وهي ابتغاء وجه الله تعالى. فالمعنى أن إطعامهم المحتاجين صادر عن إخلاص لله وحده، من غير ابتغاء جزاء أو شكر من الناس، وهو ما يؤكده تمام الآية :﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ .وبذلك يكشف أسلوب القصر عن كمال الإخلاص في العمل وتنزيهه عن الرياء وطلب المدح والثناء.

ولو قيل» :نطعمكم لوجه الله «من غير أداة القصر «إنما»، لأفاد الكلام أن الإطعام لوجه الله، لكنه لا يؤدي بالقوة نفسها معنى حصر الغاية في ابتغاء وجهه تعالى. أما التعبير القرآني ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ فقد جاء بالقصر ليؤكد أن الغاية من هذا العمل هي ابتغاء وجه الله وحده، وهو ما يجعل الصياغة القرآنية أدق في أداء المعنى وأبلغ في الدلالة على الإخلاص.

"نحن نطعمكم لوجه الله" انه ايضا يفيد الحصر, ولكنه حصر بالفاعل, أي نحن لا غيرنا نطعمكم لوجه الله, فكأنه تعريض بآخرين, وهذا المعنى غير مطلوب ولا يصح أيضا, فإن هناك غيرهم من يطعم لوجه الله. في حين قوله: إنما نطعمكم لوجه الله إنما هو تخصيص الفعل بانه لوجه الله لا تخصيص أنهم المطعمون دون غيرهم[٥].

ومن خلال ذلك يتجلّى أثر التعبير القرآني في إبراز المعاني، إذ إن اختيار الأداة المناسبة وترتيب الألفاظ في الآية الكريمة أدّى إلى بيان المعنى بأبلغ صورة, وأظهر حقيقة الإخلاص الذي ينبغي أن تقوم عليه الأعمال.

ويتجلّى أثر التعبير القرآني كذلك في دقة اختيار الصيغ الصرفية وتوظيفها في أداء المعنى, كما في قوله تعالى :﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] .فقد جاء الفعل »تبتّل«, ثم أُكِّد بالمصدر »تبتيلاً«, مع أن المصدر القياسي للفعل «تبتّل» هو «تبتُّلًا», فكان مقتضى الظاهر أن يقال: «وتبتّل إليه تبتُّلًا». غير أن التعبير القرآني عدل عنه إلى »تبتيلاً«, وهو مصدر الفعل «بتَّل», وفي هذا العدول لطيفة دلالية تستحق التأمل.

فالتبتّل يدل على الانقطاع والتفرغ للعبادة وإخلاص القصد لله تعالى, أما »تبتيلاً « فقد جاء لتوكيد هذا المعنى وتقويته, بما يفيد تحقيق الانقطاع إلى الله وإخلاص العبادة له. وقد نبّه المفسرون واللغويون إلى هذا العدول في المصدر, وعدّوه

٥. السامرائي، فاضل صالح، على طريق التفسير البياني، ج١،ص٢٣٢، من دار ابن الكثير، ط١.

من الأساليب العربية التي قد يُؤكَّد فيها الفعل بمصدر فعل آخر يشاركه في الأصل والاشتقاق.

ومن خلال هذا التعبير يتجلى ما في النظم القرآني من دقة في توظيف الصيغ الصرفية لخدمة المعنى؛ فالأمر بالتبتل لا يقتصر على مجرد أداء العبادة, وإنما يوجّه إلى الإقبال على الله تعالى وإخلاص القصد له, والانقطاع إليه عما يشغل القلب عن عبادته. ومن ثم يسهم اختيار الصيغة والمصدر في تقوية الدلالة وترسيخ المعنى الإيماني الذي ترمي إليه الآية.

ومثال الاخر من الجملة الاسمية والفِعلية:

يُراد بالجملة الاسمية الجملة التي صدْرُها اسم, نحو: محمد حاضر, والجملة الفعلية هي الجملة التي صدْرُها فعل, نحو: حضر محمد, وكان محمد مسافرًا, وظننتُ أخاك مسافرًا, ولكلٍّ مِن الجملة الاسمية والفعلية دلالة بلاغية بيانية؛ فالجملة الاسمية دالَّة على الثُّبوت؛ لوجود الاسم فيها, باعتبار أن الجملة الاسمية في ذاتها ليستْ دالةً على الثبوت, وإنما باعتبار ما تضمَّنتْه مِن اسم, والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدُّد, وإنما ذلك مِن جِهَة كَون الفعل أحد مُكوِّناتها؛ فالحدوث والتجدُّد هو للفعْل, وليس للجملة الفعلية؛ وإنما قيل: إن الجملة الاسمية دالة على الثبوت, والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدُّد مِن باب التجوُّز لا الحقيقة[٦] .

٦.الجملة العربية: تأليفها وأقسامها: د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر ناشرون وموزعون الأردن،٢٠١٣م، ص١٥٧.

ومن قوله تعالى: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ " [يوسف: ١٨]

جاء لفظ "صبرٌ" مرفوعًا في قوله تعالى :﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨], على تقدير مبتدأ محذوف, نحو: «فأمري صبرٌ جميلٌ» أو «فشأني صبرٌ جميلٌ». وقد جاء التعبير في صورة جملة اسمية, وهي أنسب في هذا المقام لما توحي به من الثبوت والاستقرار؛ فكأن يعقوب عليه السلام, إزاء ما أصابه من ابتلاء, قد وطَّن نفسه على الصبر الجميل وجعله شأنًا ثابتًا له, لا مجرد استجابة عارضة لموقف طارئ.

ولو جاء التعبير بالنصب فقيل» :فصبرًا جميلًا«, لجاز حمله على إضمار فعل, نحو: «فأصبر صبرًا جميلًا», فيكون التركيز حينئذ على فعل الصبر نفسه. أما التعبير القرآني بالرفع ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فيبرز معنى الصبر بوصفه الحالة التي اختارها يعقوب عليه السلام لنفسه في مواجهة هذا الابتلاء, وهو ما يمنح التعبير قوة في الدلالة على رسوخ الصبر وثباته.

ومن هنا يتجلى أثر التعبير القرآني في إبراز المعنى؛ إذ أسهم اختيار هذا التركيب الاسمي الموجز في تصوير صبر يعقوب عليه السلام تصويرًا يتناسب مع شدة الابتلاء الذي واجهه في قصة يوسف عليه السلام. وبذلك يكشف التعبير القرآني عن دقة اختيار التراكيب والأساليب, وعن أثر هذا الاختيار في تعميق الدلالة وتقوية أثرها في نفس المتلقي.

النوع الثاني: التقديم والتأخير

الأصل في اللغة العربية أن توضع كل كلمة في مكانها الطبيعي داخل الجملة, كما حدّد ذلك علماء النحو. لكن أحيانًا يتمّ تغيير هذا الترتيب (تقديم كلمة أو تأخيرها), هو أسلوب بلاغي في اللغة العربية يعتمد على تغيير ترتيب كلمات الجملة, بتقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم, وذلك لتحقيق أغراض مثل الحصر, التأكيد, الاهتمام والتعظيم, الكثرة والرتبة, السبق, السببية, وتحسين جمال التعبير وغيرها. وهذا الأسلوب مقصود وليس عشوائياً, ويظهر بوضوح في القرآن الكريم, حيث يؤدي إلى معانٍ دقيقة إضافية واضحة, وإليك بعض الأمثلة:

١. الحصر: الحصر بالتقديم هو أسلوبٌ بلاغيّ يُقصد به تخصيص الحكم بالمقدَّم, وذلك بتقديم ما حقّه التأخير لإفادة القصر والتوكيد.

نحو قوله تعالى: " قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا " [الملك: ٢٩]

نلاحظ اختلافًا في ترتيب الكلمات بين الجملتين

ففي قوله: "آمَنَّا بِهِ " جاء الفعل أولًا ثم الجار والمجرور, بينما في قوله: " وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا " قُدِّم الجار والمجرور على الفعل. وهذا التغيير ليس عشوائيًا, بل يحمل دلالة بلاغية دقيقة. فإنّ الإيمان لا يقتصر على الله وحده, بل يشمل الإيمان به وبأنبيائه وكتبه وملائكته واليوم الآخر؛ لذلك جاء الأسلوب على الأصل دون تقديم, فقيل: آمنا به. أمّا التوكّل, فهو عبادة لا تصح إلا لله وحده, لأنه سبحانه المتفرّد بالقدرة والتدبير؛ ولذلك قُدِّم الجار والمجرور في قوله: وعليه توكلنا للدلالة على

الحصر والاختصاص، أي: لا نتوكّل إلا عليه. (والخلاصة القول اختلاف الترتيب في الآية يعبّر عن اختلاف المعنى).

٢. التعظيم:

التقديمُ بقصدِ التعظيمِ: هو أسلوبٌ بلاغي يقدَّم فيه ما حقُّه التأخيرُ، لإظهارِ عِظَم شأنِه ورفعةِ قدرِه،

ومثال ذلك قولهُ تعالى: ﴿ومن يُطعِ اللهَ ورسولَه﴾ [النساء: ١٣]، حيثُ قُدِّمَ لفظُ الجلالةِ (الله) على (الرسول ﷺ)، تعظيمًا للهِ سبحانه، وبيانًا أنَّه الأصلُ في الطاعةِ (مع أن طاعته صلى الله عليه وسلم من طاعته سبحانه وتعالى)، وأنَّ طاعةَ الرسولِ ﷺ تابعةٌ لطاعتِه، لأنَّه المبلِّغُ عنه.

٣.الأهميّة:

من دواعي التقديم والتأخير مراعاةُ الأهمية، حيث يُقدَّم الأهمُّ في الذكر لإبراز مكانته، وتوجيه الانتباه إليه، وتحقيق مزيدٍ من التأكيد والاهتمام في المعنى ومثال ذلك قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا"(النور: ٢٨) قُدِّمَ الاستئناسُ على السلام، مع أن الأصلَ تقديمُ السلام، وذلك لكون الاستئناسِ أهمَّ، إذ هو المقصودُ الذي يُمهِّد للسلام. فالسلام إنما يكون لتحقيق الأُنس، كما أن الاستئذانَ (الاستئناس) واجبٌ، والسلامَ سُنّة، والواجبُ مقدَّمٌ على السُّنّة. والاستئناس في أصل معناه من الأُنس، وهو ضدُّ الاستيحاش، ويتضمّن تحرّي الوقت المناسب، والتأكّد من عدم

انشغال أهل البيت بما يصرفهم عن اللقاء، إذ إن وقوع الزيارة في غير وقتها أو حال انشغالهم يُفضي إلى الوحشة بدل الأُنس، فكان تقديمُ الاستئناس أولى وأبلغ.

٤. الكثرة والرتبة:

يأتي التقديم والتأخير في القرآن الكريم بحسب الرتبة والكثرة، فيُقدَّم ما هو أعلى رتبةً أو أكثر أهميةً في سياقٍ معيّن، وقد يُؤخَّر في موضعٍ آخر لمراعاة مقتضى الحال. ومن ذلك اختلاف الترتيب في بعض الآيات، كقوله في البقرة: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وفي الأعراف: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وقوله في البقرة: ﴿والنصارى والصابئين﴾، وفي الحج: ﴿وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى﴾، وكذلك في البقرة والأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾، وفي آل عمران: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾، وقوله في البقرة: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وفي الحج: ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ وذلك كلّه لمراعاة الفروق الدقيقة في الرتبة أو الكثرة أو السياق البلاغي.[٧]

وأيضا قوله تعالي ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. قُدِّم الظالم لنفسه على المقتصد والسابق بالخيرات؛ وقيل: إن من حِكَم ذلك كثرة هذا الصنف بين الناس، ثم يليه المقتصدون، أما السابقون بالخيرات فهم الأقل عددًا. ومن هذا

٧. islamweb.net، https://www.islamweb.net/ar/

الباب ما قيل في قوله تعالى: ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]، حيث قُدِّم السارق لأن وقوع السرقة من الرجال أكثر في الغالب، وفي قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢]، حيث قُدِّمت الزانية لما في السياق من اعتبارات بلاغية ذكرها أهل التفسير. ويُعَدُّ هذا من لطائف التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حيث يأتي ترتيب الألفاظ موافقًا لما تقتضيه الحكمة والبلاغة والسياق.

٤. السببية: كتقديم العزيز على الحكيم؛ لأنه عزَّ فحكَم، والعليم عليه؛ لأن الإحكامَ والإتقانَ ناشئٌ عن العلم، وأما تقديمُ الحكيم عليه في سورة الأنعام فلأنَّه مقامُ تشريعِ الأحكام.

٥. السبق: وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد، بتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوحٍ، ونوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وهو على عيسى، وداود على سليمان، والملائكة على البشر في قوله: ﴿ اللَّهَّ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، وعاد على ثمود، والأزواج على الذرية في قوله: ﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].
والسِّنَة على النوم في قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أو باعتبار الإنزال؛ كقوله: ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى: ١٩]، ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]، أو باعتبار الوجوب والتكليف؛ نحو: ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ((نبدأ بما بدأ اللهُ به)).

أو بالذات؛ نحو: ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر: ١]، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧]، وكذا جميع الأعداد، كل مرتبةٍ هي متقدمةٌ على ما فوقها بالذات، وأما قوله: ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ [سبأ: ٤٦]؛ فللحثِّ على الجماعة والاجتماع على الخير.

وقد تقدَّم بيانُ بعض أغراض التقديم والتأخير وأسراره البلاغية، غير أنَّ هذه الأغراض لا تنحصر فيما ذُكر، بل تتنوَّع بتنوُّع المقامات واختلاف السياقات. وليس هذا الموضعُ محلَّ استقصائها جميعًا أو الخوض في تفصيلاتها، وإنما المقصودُ إيرادُ نماذجَ وأمثلةٍ تُبرز ما ينطوي عليه هذا الأسلوب من حِكَمٍ بلاغيةٍ دقيقة ومقاصدَ معنويةٍ رفيعة في النظم القرآني. أمَّا جمعُ تلك الأغراض واستيفاءُ البحث فيها، فإنه يفتقر إلى دراسةٍ مستقلةٍ ومقامٍ أوسع من هذا المقام.

النوع الثالث: الإيجاز في القران الكريم

الإيجاز: هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح، كقوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها. وكان الجاحظ أول من أشار إليه في قوله: "الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معاني".[٨]

٨. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت عام ١٤٢٣ه، ج٢، ص ١٩

الإيجاز في البلاغة العربية

الإيجاز من أهم أساليب البلاغة, ويُقصد به أداء المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة مع تمام الفائدة ووضوح الدلالة[٩] وينقسم إلى قسمين رئيسين:

١. إيجاز القصر:

ويُسمّى أيضًا إيجاز البلاغة, وهو التعبير عن معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة من غير حذف شيء من الكلام

أمَّا (إيجــاز القصــر) فيُقدَّر فيه معان كثيرة, ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة مِنْ غير حذفٍ؛ كقوله -تعالى-: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤], فقد جمعت الآيةُ فأوعتْ معاني عديدة تتعلق بالخالق وعظمته وقدرته ووحدانية... إلخ. حتى إنه رُويَ أنَّ ابن عمر -رضي الله عنه- قرأها, فقال: مَن بقيَ له شيء فليطلبه.

-أيضًا: قوله -سبحانه-: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾؛ فالآية تتضمَّن معاني كثيرة من تخويف للقاتل, وحقن للدماء, وشعور بالأمن والأمان... إلخ.

-وقوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام:٨٢]. فكلمة (الأمن) يدخل تحتها كل أمر محبوب, فقد انْتَفَى بها أن يخافوا فقرًا, أَو موتًا, أو جوْرًا, أو زوال نعمة, أو غير ذلك من ألوان المكاره.

-وقوله -سبحانه-: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا) [النازعات:٣١]؛ فقد أخبر -جلَّ شأنه- بكلمتيْن عن جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للناس.

٢. إيجاز الحذف: هو أن يُحذَف من الكلام كلمةٌ أو جملةٌ أو أكثر, مع وجود قرينةٍ

تدلّ على المحذوف وتُعيّنه, بحيث يبقى المعنى تامًّا واضحًا لا يعتريه خلل أو غموض. ويُعَدُّ من الأساليب البلاغية التي تُكسب الكلام قوةً وجمالًا واختصارًا.

وهو حذف جزء من الكلام مع وجود قرينة تدل عليه, بحيث لا يختل الفهم ولا يلتبس المعنى.

وقد يكون المحذوف:

حرفًا: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. أي: ولم أكن بغيًّا.

مضافًا: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. أي: في سبيل الله.

مضافًا إليه: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ أي: بعشر ليالٍ.

موصوفًا: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا.

صفةً: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: رجسًا مضافًا إلى رجسهم.

شرطًا: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أي: فإن تتبعوني يحببكم الله.

جواب شرط: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: لرأيت أمرًا عظيمًا.

مسندًا: ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي: خلقهن الله.

متعلَّقًا: ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: عما يفعلون.

جملةً كاملة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ أي: فاختلفوا فبعث الله النبيين.

عدة جمل:

﴿فَأَرْسِلُون. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ والتقدير: فأرسلوني إلى يوسف لأستفتيه في الرؤيا, فأرسلوه فأتاه فقال: يوسف أيها الصديق.

للإيجاز أغراض بلاغية متعددة, من أهمها:

الاختصار والإيجاز في التعبير.

مراعاة المقام, كضيق الوقت أو سرعة الموقف.

تجنّب الإطالة المفضية إلى السآمة والملل.

تنشيط ذهن السامع لاستنباط المحذوف من السياق.

يتجلّى الإيجاز في القصص القرآني في أبهى صوره وأدق أساليبه البلاغية, من خلال الحذف والاختصار والاكتفاء بذكر ما يقتضيه المقام من عناصر الحدث, من غير إخلال بالمعنى أو الغرض المقصود. ويُعَدّ هذا اللون من التعبير من أبرز مظاهر البيان القرآني؛ إذ تؤدَّى المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة, مع تمام الدلالة وقوة التأثير.

ومن خصائص الإيجاز في القصة القرآنية أنه يركّز على الجوانب الجوهرية للحدث, ويستغني عن التفاصيل التي لا تتوقف عليها الغاية المقصودة من السرد, فتأتي بعض المشاهد في صورة مركّزة مكثفة, وتُترك للمتلقي إمكانية استحضار ما لم يُذكر اعتمادًا على القرائن والسياق. وبهذا يتحقق التوازن بين الإبانة والاختصار, ويكتسب السرد القرآني كثافة دلالية تزيده قوة وتأثيرًا.

ومن الشواهد البارزة على ذلك قوله تعالى :﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ فقد لخّصت هذه العبارة الموجزة جانبًا مهمًّا من الأحداث التي سبق عرضها في السورة, فجمعت بين مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وموقفه منها في تركيب بالغ الإيجاز والدلالة. وكأن امرأة العزيز تلخّص للنسوة ما

جرى بينها وبين يوسف عليه السلام بكلمات معدودة, من غير حاجة إلى إعادة تفصيل الوقائع التي عرفها المتلقي من السياق السابق.

ويحمل التعبير بالفعل ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ دلالة دقيقة؛ إذ لا يفيد مجرد الامتناع فحسب, وإنما يدل على طلب العصمة والامتناع الشديد والتحصّن من الوقوع فيما دُعي إليه. وقد أسهم اختيار هذا الفعل في تصوير قوة موقف يوسف عليه السلام وثباته أمام المراودة. وهكذا جمعت الآية في ألفاظ قليلة بين الحدث وموقف يوسف منه, محققةً كثافة في المعنى وقوة في التصوير.

وبذلك يتبين أن الإيجاز من السمات البارزة في التعبير القرآني؛ إذ يجمع بين قلة الألفاظ وسعة الدلالة, ويؤدي المعنى بوضوح وقوة من غير إطناب لا يقتضيه المقام.

نتائج البحث

خلص البحث إلى أن التعبير القرآني يمثل ذروة الإعجاز البياني؛ لما يتسم به من روعة النظم, ودقة اختيار الألفاظ, وإحكام التراكيب, بما يؤدي المعنى في أكمل صوره وأبلغها. كما أظهرت الدراسة أن الأساليب القرآنية, كالتقديم والتأخير والإيجاز وغيرها, ليست مجرد مظاهر جمالية أو محسنات بيانية, وإنما تؤدي وظائف دلالية أساسية في بناء المعنى وإبراز المقاصد. وتكشف هذه الأساليب عن تلاحم فريد بين اللفظ والمعنى, بحيث يسهم كل عنصر في أداء الدلالة

المقصودة بدقة وبلاغة. ويؤكد ذلك ما يتميز به البيان القرآني من تفرد وإعجاز يتجاوز القدرة البشرية، ويظل شاهدًا على مصدر القرآن الإلهي على مر العصور.

المصادر والمراجع:

١. ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركه مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية، (1392-1389هـ)

٢. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى - 1412هـ.

٣. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - 1414هـ.

٤. الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، صحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، عطار، أحمد عبد الغفور، دار العلم للماليين بيروت، ط ٤، 1987م،

٥. السامرائي، فاضل صالح، على طريق التفسير البياني، من دار ابن الكثير، ط١

٦. الجملة العربية: تأليفها وأقسامها: د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر ناشرون وموزعون الأردن،2013م.

٨. https://www.islamweb.net/ar/ : islamweb.net.

٨.الجاحظ, أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني, البيان والتبيين, دار ومكتبة الهلال, بيروت عام 1423ه.

٩. على الجارم, البلاغة الواضحة, الطبعة الأولى دار المعارف.

١٠. مقالة: محمد عبد الشافي القوصي الإيجاز والإطـناب في الـقـرآن, الرئيسية ارشيف المجلة العدد ٤٤٠ قضايا دعوية,2026م.

١١. السامرائي, فاضل صالح, التعبير القرآني, الطبعة الثالثة في بغداد عام 2013

١٢. السامرائي, فاضل صالح السامرائي, من أسرار البيان القرآني, الطبعة الأولى من دار الفكر في عمان عام 2009م.

١٣.الدكتور محمد أحمد قاسم, الدكتور محيي الدين ديب, علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني), الطبعة الأولى2003م.